

الشخصية التونسية بين دعاوى القطرية والتأصيل القومي

The Tunisian character between the National and the Arabic rooting claims

إعداد: الدكتور صابر فريحه

كاتب صحفي/ باحث تونسي في علم اجتماع الاتصال وميديا

Email: saber.assabahh@gmail.com

المخلص:

مازالت مسألة الشخصية كمفهوم نظري، وبمختلف أبعادها ومحدداتها، تطرح جدلا واسعا بين مختلف الطروحات الفكرية والدراسات الحضارية والبحوث الاجتماعية والنفسية.. ولربما يحتدم الجدل وتتعدد مداراته حين اندراجه ضمن سياقات التأصيل لمفهوم الشخصية القطرية، والتي يرى فيها جنوحٌ تغريبيٌّ، تغلفه دعاوى العلمانية أو ربما هي لدى البعض مسوغ لتأسيس مشروع الدولة الأمة L'état nation على المستوى القطري، بيد أن قضية "الشخصية القطرية" في تونس تحدث أزمة أعمق ولا سيما في تصوّر بعض الاتجاهات الإيديولوجية وبخاصة الجناح القومي، والتيار العروبي وبخاصة الاتجاهات الإسلامية إلى حد توصيفها "بصراع الهوية في تونس". ولينخرط الجميع في سجال فكري وتجاذبات، مازالت تلقى بظلالها حتى بعد الثورة التونسية للعام ٢٠١٤ وما أعقبها من تحرر فكري وانعتاق سياسي، تماما على غرار ما أحدثته هذه القضية من خلافات سياسية وصراع على الحكم بعد الاستقلال فيما اصطلح عليه "بالفتنة اليوسفية" نسبة إلى الصراع الحاصل بين الزعيم صالح بن يوسف، ذي التوجهات العروبية، والزعيم الحبيب بورقيبة صاحب التوجهات السياسية القطرية و الفكرية العلمانية، نسجا على منوال النموذج التركي الذي أسسه مصطفى كمال أتاترك (الغازي)، الذي لم يفتأ بورقيبة يفاخر ويعتد باحتذاء تجربته. مقاربتنا بهذا البحث و عبر مفاصله هي رصد وتشخيص لأبعاد "الشخصية في تونس" من خلال المنظورين وفي سياق مساجلاتهما الكبرى.

ونحن ضمن هذه المقاربة نطرح في هذا السياق الحدود العلمية بين مختلف المواضع العلمية والمرجعيات الفكرية في تأصيلاتها لمفاهيم على غرار "الشخصية القومية" ضمن حدودها بين مطلق القومية واتجاهات الدولة الأمة مع ما يقتضيه ذلك من الخوض في مفهوم القومية ومفهوم "الأمة" طارحين مختلف التقويمات للمفهوم ضمن الاتجاه العربي ودعاوى القومية القطرية في سياقات تاريخ تونس الحديث ومختلف المسوغات التاريخية للقطرية التونسية التي أثمرت بدايات وعي "الدولة الأمة" وإرهاصات نشأة "القطر القومي التونسي" حيث كرست الدولة الوطنية مفهوم "الأمة التونسية" ضمن مشروع الدولة الأمة الذي استندت إليه المشروعية البورقيبية عارضين في هذا السياق نقد التيار القومي العربي لهذا المفهوم المستهجن والموسوم بالمحاولة التغريبية اجتنائية المفضوحة لتونس من بينتها العربية الأم.

إنّ التجاذبات الحاصلة تاريخيا بين الاتجاهين لا تنفك عن الجدل القائم بين مختلف المنظرين والساسة والمهتمين بالمباحث الحضارية وفي التأصل للهوية الثقافية. بيد أن الحالة التونسية ما بعد ثورية الصراع الفكري إلى الحلبة السياسية ممارسة الصراع تحت عناوين المداولات البرلمانية والبلاتوهات التلفزية والسباقات الانتخابية، يبقى قائما ومحموما بجلاء للعارفين بخصائص الحسابات القديمة الجديدة منذ الحراك الطلابي بأسوار الجامعة التونسية بين الستينات والتسعينات، انتهاء بمداولات تأسيس دستور الجمهورية الثانية للعام ٢٠١٤.

يمكن مراجعة البحوث والدراسات المتضادة منطلقات ومنتديات في تاريخ تونس الحديثة والتي أحدثت حراكا فكريا حول صراع الهوية في تونس بين دعاة القطرية ومساندي القومية على غرار علي البلهوان، والبشير بن سلامة، ومحمد مزالي، وخليفة شاطر، وغيرهم بالنسبة للاتجاه الأول، ودراسات عفيف البوني وعبد المجيد النجار والضايي خوالدية ومحمد الشاذلي بلقاضي وغيرهم من أنصار الاتجاه العربي الإسلامي وبين هذين التيارين صدرت دراسات اجتماعية يمكن وصفها بالعلمية أو أقرب لجهد الموضوعية رغم اندراجها ضمن مستتبعات الصراع على غرار دراسات الباحثين المنصف وناس ومحمود الذواوي ومنجي الشملي.

الكلمات المفتاحية: الأمة - الشخصية القومية - الدولة الأمة - الأمة التونسية - صراع الهوية.

Abstract

The issue of personality as a theoretical concept, and its various dimensions and limitations, still presents a wide debate between the various intellectual propositions, civilizational studies and social and psychological research.. Perhaps the controversy intensifies and becomes complicated when it is included in the contexts of rooting or belonging. Does the tunisian character has national roots and belonging or arabic ones?

The issue of the “National personality” in Tunisia (established by the bourguiban government policy) creates a deep crisis, especially in the presence of some ideological trends: the Arabic movements and the Islamic movements.

The historical interactions between the two directions do not stop in the controversy that exists between the various theorists, politicians and those interested in civilizational investigations and in establishing the cultural identity ; but extends to the Tunisian post-revolutionary situation in the political field, the practice of conflict under the headlines of parliamentary deliberations, television TV shows and electoral races.

Keywords: Nation - national character - National state - Tunisian nation - Identity struggle.

المقدمة:

مازالت مسألة "الشخصية" كمفهوم نظري، وبمختلف أبعادها ومحدداتها، تطرح جدلا واسعا بين مختلف الطروحات الفكرية والدراسات الحضارية والبحوث الاجتماعية والتشخيصات النفسية.. ولربما يحتدم الجدل أكثر، وتتعدد مداراته عند اندراجه ضمن سياقات التأصيل لمفهوم الشخصية القطرية "المعزولة عن السياقات الحضارية" للشخصية القومية"، والتي يُرى فيها جنوحٌ تغريبيٌّ، تغلفه دعاوى العلمانية أو ربما هي لدى البعض مسوغ لتأسيس مشروع الدولة الأمة L'état nation على المستوى القطري، بيد أن قضية "الشخصية القطرية" في تونس تحدث أزمة أعمق ولا سيما في تصوّر بعض الاتجاهات الإيديولوجية وبخاصة الجناح القومي، والتيار العربي وبخاصة الاتجاهات الإسلامية إلى حد توصيفها "بصراع الهوية في تونس"^١. ولينخرط الجميع في سجال فكري وتجادبات، مازالت تلقى بظلالها حتى بعد الثورة التونسية للعام ٢٠١٤ وما أعقبها من تحرر فكري وانعتاق سياسي^٢، تماما على غرار ما أحدثته هذه القضية من خلافات سياسية وصراع على الحكم بعد الاستقلال فيما اصطلح عليه "بالفتنة اليوسفية" نسبة إلى الصراع الحاصل بين الزعيم صالح بن يوسف، ذي التوجهات العروبية، والزعيم الحبيب بورقيبة صاحب التوجهات السياسية القطرية والعلمانية الفكرية،

^١ - النجار (عبد المجيد)، صراع الهوية في تونس، شركة ديجيتال، تونس (د ت)، وقد صدر المؤلف بعد سقوط حكم بورقيبة.

^٢ - يمكن مراجعة البحوث والدراسات المتضادة منطلقات ومنتديات في تاريخ تونس الحديثة والتي أحدثت حراكا فكريا بين دعاة القطرية ومساندي القومية على غرار علي البلهوان، والبشير بن سلامة، ومحمد مزالي، وخليفة شاطر، وغيرهم بالنسبة للاتجاه الأول، ودراسات عفيف البوني وعبد المجيد النجار والضواوي خوالدية ومحمد الشاذلي بلقاضي وغيرهم من أنصار الاتجاه العروبي الإسلامي وبين هذين التيارين صدرت دراسات اجتماعية يمكن وصفها بالعلمية أو جهد الموضوعية رغم اندراجها ضمن مستتبعات الصراع على غرار دراسات منصف وناس ومحمود النوادي ومنجي الشملي...

نسجا على منوال النموذج التركي الذي أسسه مصطفى كمال أتاترك (الغازي)، الذي لم يفتأ بورقياً يفاخر باحتذاء تجربته. مقاربتنا بهذا البحث وعبر مفاصله هي رصد وتشخيص لأبعاد "الشخصية في تونس" من خلال المنظورين وفي سياق مساجلاتهما الكبرى.

١ - من الشخصية الذاتية إلى الشخصية القومية.

١-١ - في مفهوم الشخصية الذاتية.

تعرف الشخصية الذاتية على أنها ما يميز الشخص (الذات، الفرد) عن غيره (مجتمعه، الشخصية الجماعية) من حيث الاسم والنسب والسمات الخلقية والخلقية والسلوكية.. أما الشخصية الجماعية لأمة (أو شعب أو قبيلة) فهي مجموع خصال (إيجابية أو سلبية) شاعت بين قسم مهم منها فعممت عليها جميعا. وتنشأ هذه السمات أو الخصال الخاصة نتيجة لعوامل الجغرافيا والتاريخ والحضارة والعلاقة بالآخر^٢ المشار إليها أثناء تحديد دلالات الأمة والشعب والهوية والقومية... وهذه الخصال قابلة للتحويل^٤ لكن ما قد ينسحب على الشخصية القومية العربية قد لا يصدق في مجموعته على ما يعرف بالشخصية القطرية التونسية، كما سنتناوله لاحقا. لأن أوضاع المكان القطري وخصائص أصله الموعلة في التاريخ وأنظمة الحكم المستبدة التي تداولت عليه والغزوات التي عرفها والهزات التي اكتسحتها والديانات التي انبثت فيه طوعا أو كرها والغزو والاحتلال بتشكلاته وبحضوره العثماني والغربي، قد صاغت شخصيته صياغة تختلف في جوانب كثيرة منها عن الشخصية الأصل. ويمكن القول بأن الفروق بين شخصيات الشعوب العربية مثلها مثل الفروق بين شخصيات أسرة واحدة أو الفروق بين قبائل، فنجد بين أبناء الأب الواحد الشجاع والجبان والكريم والبخيل والعالم والجاهل... فهي صفات اكتسبها كل منهم ولم يرثها نتيجة لظروفه الخاصة وأسلوب تعامله مع الواقع وتأثره به وتأثيره فيه.. وكذلك الأمر بالنسبة إلى الفروق بين القبائل الناتجة عن ظروف المكان والزمان والعلاقة بالآخر^٥.

يتأكد مما تقدم إذن أن "الهوية الذاتية" أو "الشخصية الفردية"، كيان تاريخي متحرك خاضع للتبدل والتطور. وتبعاً لذلك يمكن فهم الهوية خارج ميكانيزمات الحركة في سياق التاريخ. لذلك نلاحظ كيف: "ارتبط مفهوم الهوية في الفكر العربي الحديث بجملة من المواقف والتصورات المتعلقة بالتراث والحدثة والمعاصرة والأصالة والشخصية القومية والذات العربية والعقلية العربية، هذه المواقف التي اتصلت بدورها بالمواقف من التقدم والتخلف والتأخر والمواقف من الآخر ومن الانتصارات والهزائم والأزمات"^٦، حسب ما يفيد به الدكتور حسين سمير إبراهيم حسين.

^٢ - البيطار(د. نديم)، "حدود الهوية القومية: نقد عام"، دار الوحدة، بيروت (١٩٨٢) ص ١٧.

^٤ - التوحيدي(أبوحيان)، الإمتاع والمؤانسة، صححه وضبطه وشرحه غريبه أحمد أمين وأحمد الزين، دار مكتبة الحياة بيروت (د.ت)، ج ١ ص (٧٦٧٥).

^٥ - خوالدية (الضاوي)، شخصية التونسية: محصول الجغرافيا والتاريخ، تونس (د.ت) ص (٠٤).

^٦ - حسين (سمير إبراهيم)، "مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية"، ترجمة قاسم مقداد، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق (٢٠٠٢) ص ٣١.

٢-١ مفهوم الشخصية القومية :

وإذا كان مفهوم "الهوية الذاتية أو الشخصية": "يؤكد على عملية التنمية الذاتية المميزة لأنفسنا ولعلاقتنا مع الآخر باعتبار أن الشخصية، هي تنظيم دينامي لوضعيات نفسية فيزيائية "تحقق للفرد تكيفه الاجتماعي"^٧، في ارتباط متكامل بين الوجود المادي والمعنوي للشخصية، والتي تعين هوية الفرد وتميزه عن غيره من الأفراد تمييزاً بيناً^٨. فإن تشكل مفهوم "الشخصية القومية" جاء ليؤكد وثوقية العلاقة العضوية بين الفرد وأمته أي بين "الهوية الذاتية" والهوية الاجتماعية، رغم الاختلافات والتعدد في تعريف الشخصية القومية^٩. يمكننا على هذا الأساس انتقاء التعاريف الثنائية التالية في هذا الصدد وفي ظل غياب الإجماع على تعريف جامع مانع لمفهوم "الشخصية القومية".

+ تعريف دائرة المعارف الدولية للعلوم الاجتماعية: "إن الشخصية القومية تعني السمات المميزة المستمرة لشعب دولة قومية معينة".

+ وقريب منه تعريف "د. نادية سالم": القائل بـ "إن الشخصية القومية هي السمات المميزة والمستمرة لشعب دولة قومية معينة والتي هي انعكاس للواقع الاجتماعي والاقتصادي والتاريخي الذي يحيا فيه الفرد".

← على أن هذين التعريفين ويشترطان ضرورة وجود "دولة قومية" (Etat nation). وهذا يعني أن الأمم مجزأة في أكثر من دولة، ويتعين أن يكون لها أكثر من شخصية قومية على غرار سويسرا والكوريتين واليمنيين في زمن ما...

- إن الشخصية القومية مفهوم يستخدم لوصف السمات النفسية والاجتماعية والحضارية التي يمكن من خلالها التمييز بين الشعوب وبين بعضها البعض وهذا تعريف "مارغريت ميد" الذي يشاكلة تعريف المفكر المصري السيد ياسن: إن "الشخصية القومية هي السمات النفسية والاجتماعية والحضارية لأمة ما، التي تتسم بثبات نسبي والتي يمكن عن طريقها التمييز بين هذه الأمة وغيرها من الأمم".

يؤدي هذا الفهم إلى الإحساس بقناعة مفادها أننا مطالبين حسب كل من "ميد" و"ياسين" بتعيين وتحديد "الشخصية القومية" حتى نتمكن من أن نطلق على مجموعة بشرية معينة اصطلاح "أمة"، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، يعتقد صاحبا التعريفين أن الصفات السمات والخصائص التي تميز الشخصية القومية تتسم بثبات نسبي وبذلك يسندان لها بعداً تاريخياً. كما يمكننا أن نفهم ومن خلال مختلف التعاريف المذكورة أن السمات الشخصية القومية شئ مختلف عن السمات الشخصية الفردية (الهوية الذاتية) وليست جمعا إحصائياً لأكثر السمات الشخصية شيوعاً في مجتمع معين^{١٠}.

^٧- بدوي (أحمد زكي)، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، مكتبة لبنان بيروت (١٩٧٨) ص ٣١١.

^٨ - وطفة (علي)، المظاهر الاغترابية في الشخصية العربية، عالم الفكر، المجلد (٢٧) العدد (٢) الكويت أكتوبر/ديسمبر (١٩٩٨) ص ٢٤١-٢٨٠.

^٩ - يمكن العودة الى التعريفات التي عدتها د. نادية سالم في مقالها الشهير "الشخصية القومية العربية بين الدراسات الوطنية والتجريبية" المنشورة بمجلة قضايا عربية، للدراسات والنشر مايو يونيو (١٩٧٨) ص ٥. أو العودة بالتدقيق إلى وثائق أشغال الملتقى الأول للجامعيين التونسيين والمصريين، تونس أفريل (١٩٧٨) دون إغفال مرجع د. علي مختار حول القومية والعروبة والنهضة (د.ع.م) ط (١) مصر (١٩٨٨) ص ٥٦.

^{١٠} - مختار (د.علي)، حول القومية والعروبة والنهضة، دار علي مختار للدراسات والنشر، الجيزة، مصر (١٩٨٨) ص ٥٩.

٢- الشخصية بين مطلق القومية واتجاهات الدولة الأمة

١-٢ في مفهوم القومية

ثمة مصطلحات لا تزال إلى اليوم بحاجة إلى التحديد، رغم كثرة المؤلفات حولها، خاصة لدى استعمالها في معالجة موضوع القومية وتزداد الحاجة إلى تدقيقها أثناء نقل أو استعمال هذه المفردات في اللغة العربية وأمثلة ذلك: القومية، والنزعة القومية، والقومية والوطنية والجنسية والأمة والدولة، والدولة الأمة.. وليس أصعب من كل ما تقدم من التطرق إلى مشكلة القومية في ما يُطلق عليه "الشرق الأوسط" وما نطلق عليه وتنبناه "العالم العربي" وحين ندرك أن العرب في تطارحهم للمسألة القومية تطوّحوا في التزاماتهم الإيديولوجية المناصرة أو المناوئة للبرالية والشيوعية أو مسافتها من مقولات الإسلام السياسي لاحقاً...

إجمالاً، ظهرت النزعة القومية خلال عمليات تشكل الأمم، التي صاحبها ظهور اللغات والثقافات القومية وانصهار نفسية قومية وعواطف قومية خاصة^{١١}. وتعتقد الماركسية أن القومية (Nationalisme) مبدأ إيديولوجي بورجوازي يدعو إلى العزلة القومية وإلى عدم الثقة بالأمم الأخرى وإلى العداء بين الأمم، وتمتد جذور القومية في السمات النوعية لتطور النظام الرأسمالي والتي تظهر في صورتين شوفينية (التعصب القومي) الدولة العظمى لأمة مسيطرة. كما تتميز باحتقار للأمم الأخرى، أما القومية المحلية لأمة مقهورة فيدفعها السعي إلى الانعزال القومي وعدم الثقة بالأمم الأخرى... والقومية غير مقبولة في أي شكل للشعب العامل الذي يعبر عن مصالحه البروليتارية، سيما عند مرحلة محددة من حركة التحرر الوطني. ويعتبر الشيوعيون أن من الأمور المبررة تاريخياً أن يؤيدوا قومية الأمة المقهورة التي تكون ذات مضمون ديمقراطي (مناهضة للإستعمار، عاملة من أجل الاستقلال السياسي والاقتصادي)^{١٢}.

← يفهم من هذا، أن معنى القومية تشكل في وقت لا يسبق القرن الثامن عشر عند الماركسيين حيث ترتكز على أنماط أربعة للقومية وهي :

- ١- قومية شعب ذي تجربة طويلة بتطور متزامن لقوة الدولة والوعي القومي حيث المواطنة هي التي تحدد القومية (أوروبا الغربية).
 - ٢- قومية بلدان دون تجربة سياسية ذات ديمومة طويلة ولكنها ذات لغة مشتركة وصورة ذاتية (إيطاليا وألمانيا).
 - ٣- قومية بلدان مثل بلدان جنوب شرقي أوروبا دون تجربة سياسية مشتركة ذات ديمومة طويلة وغالبا دون إقليم متجانس عرقياً، حيث يلعب الدين ذو الرابطة التاريخية دور المحدد المهم للوعي القومي عادة.
 - ٤- القومية المناهضة للإستعمار وذات الدافع للحدثة والتي ترتبط بعامة العالم الثالث.
- ويحيل هذا التصنيف إلى مفهوم القومية القطرية أو الوطنية الإقليمية التي ترفضها الماركسية بداعي الالتزام بالأمية العالمية الإنسانية، وهو تصنيف يستبعد "دافيز" أن يكون مفيداً أو تصنيفاً جامعاً^{١٣}.
- ويرتبط مفهوم "القومية" مطلقاً في العلوم الاجتماعية بمفهوم "الجماعة الإثنية"، (Le groupe Ethnique)، وكلمة إثنية مشتقة من أصل يوناني (Ethno) بمعنى "شعب" أو "جنس" أو "أمة"، وكان هذا اللفظ يطلق في اللغات الأوروبية على من هم ليسوا مسيحيين أو يهوداً في العصور الوسطى.

^{١١} - الموسوعة الفلسفية : مصدر سابق / حرف القاف، ص (٣٤٩).

^{١٢} - المصدر السابق ص (٣٤٩).

^{١٣} - دافيز (هوراس) : القومية، نحو نظرية علمية معاصرة ، ترجمة سمير كرم، مؤسسة الأبحاث العربية. ط(١)، بيروت لبنان، (١٩٨٠) ص (١٦).

لكن في العصور الحديثة أصبح اللفظ يستخدم اجتماعيا للإشارة إلى جماعة بشرية يشترك أفرادها في العادات والتقاليد واللغة والدين وأي سمات أخرى مميزة، بما في ذلك الأصل والملاحم الفيزيكية الجسمانية، لكنها تعيش في نفس المجتمع والدولة مع جماعة أو جماعات أخرى تختلف عنها في إحدى هذه السمات وهو ما يؤدي إلى الشعور بالانتماء إلى جماعة معينة في مواجهة الجماعات الأخرى^{١٤}.

ومن الخصائص الاجتماعية التي تميز الجماعة الإثنية بالإضافة إلى اختلافها عن غيرها في متغيرات اللغة والدين والسلالة أو الأصل القومي، خاصة وغيرها، العضوية غير التطوعية بحيث يتوارث أفرادها الرموز الثقافية من لغة ودين والمزاج واللون والعادات وهو ما يطلق عليه السمات الإرثية (Ascriptive Traits)^{١٥}، وهي سمات تتناقل وتتسامع عبر عديد الوسائل والقنوات والأدوات وفي مقدمتها الإعلام، حيث تعرف مدرسة الاتصالات الاجتماعية (كارل دوينش وآخرون Karl Deutsch) القومية بمعايير التواصل الاجتماعي التي تعني أساسا الإعلام الجماهيري، حيث لا يوجد إعلام تكون مستلزمات القومية ناقصة بحكم التعريف^{١٦}.

٢،٢- في مفهوم الأمة :

١،٢،٢- في مفهوم الأمة في الغرب:

وعلى غرار ارتباط مفهوم القومية بالإثنية أفرزت الدراسات المتصلة بالشخصية القومية في الغرب تبسيطا واضحا في عرض مفهوم "الأمة" Nation، إذ يستخدم بعض المؤلفين مفهوم "أمة" بطرق مختلفة. يعبر عن هذا الاختلاف كارل كاوتسكي Karl Kautsky بقوله: "يوصف سكان دولة بأنهم أمة، وبهذا المعنى نتحدث عن أمة بلجيكية (بالرغم من أن بلجيكا بلد تسوده لغتان، أي أنه رغم وجود أقسام من السكان في الدولة الواحدة فإنهم يشكلون جماعات قومية خاصة هم داخلها وهؤلاء يوصفون أيضا بأنهم "أمم" أو "قوميات"، ومن المستحسن أن يستخدم المصطلح الأخير (القومية) وحده للتعبير عنهم^{١٧}، ولذلك يرجح "دافيز" ربط استخدام مصطلح "القومية" باللغة، ويقرن استخدام مصطلح "الأمة" بـ"الدولة"، ولتجاوز مأزق التحديد هذا ينقل المقولة التي اقترنت بالحرب العالمية الأولى (توجد أمة حين تعتقد مكوناتها أنها أمة)، وكما أشار إلى ذلك المفكر الفرنسي "ارنيس رينان" Ernest Renan بقوله: "الأمة روح متجسدة"^{١٨}.

٢،٢،٢- مفهوم الأمة عند العرب :

أما في البلاد العربية، فقد انبثق وعي خاص بالشخصية القومية وتمتد جذور تعريف الأمة والقومية العربية إلى حركة النهضة العربية وحركة التحرير الوطني ولتواصل إبان بناء الدولة الوطنية والموجة القومية خلال الخمسينات التي الهبت جذورها التجربة

^{١٤}- إبراهيم (سعد الدين) الملل والنحل والأعراف في الوطن العربي، مركز ابن خلدون للدراسات الإنمائية، القاهرة (١٩٩٣) ص (٢١).

^{١٥} - المصدر السابق ص (٢٣)

^{١٦} - دافيز (هوراس)، القومية، مصدر سابق ص (١٦).

^{١٧} - المصدر السابق ص (١٧).

^{١٨} - المصدر السابق ص (١٧).

الناصرية والصراع العربي الصهيوني. لذلك لا تفوتنا الإشارة إلى أن التلازم بين مصطلحي "القومية" و"الامة" ظل مدارا للبحوث المجراة في مجال الشخصيّة والهوية الجماعية.

ويرجع توفيق بشروش في دراسته الممهورة بـ " القومية القطرية في تونس قبيل الحماية" استعمال كلمة القومية بدل كلمة " الوطنية " اعتبارا لشمولية الاصطلاح الأول وإحالة مفردة "الوطنية" إلى المجتمع الانقسامي. يرتبط هذا التوظيف لدى بشروش بالإستعمال اللغوي التاريخي المتصل بالتذبذب اللغوي لكلمة "أمة" nation ذات الارتباط الأصيق بمفردة " قومية"، فحسب Isodore de séville (١٧ق) تعني كلمة "أمة" nation "مجموعة بشرية تنحدر من أصل واحد" وكما نلاحظ أن هذا المفهوم الإثني لا يبتعد كثيرا عن تعريف ابن منظور في لسان العرب في سياق تعريفه " للوطن " بقوله : "أمة الرجل قومه، وقوم كل رجل شيعة وعشيرته، أما العشيرة فهي بنو الأبناء الأذنون ثم القبيلة، أما الشيعة فهم أتباع الرجل وأنصاره ^{١٩} أما التعريف المصادق عليه من الأكاديمية الفرنسية في سنة (١٦٩٤) فهو الاتي : الأمة هي معشر السكان الذين ينتمون إلى نفس الدولة ويعيشون في نفس البلاد ويخضعون لنفس القوانين ويتكلمون نفس اللغة ^{٢٠}. وهو تعريف يتوافق مع مختلف التعاريف العربية فيما نرى.

◀ ومن أهم تعاريف "الأمة" عربيا عرض الدكتور سيّد عويس الذي ميز بين ثلاث مفاهيم وهي " القومية " و"الحركة القومية" و" الأمة"، فعنده " القومية" مفهوم سياسي يعني الشعور بالانتماء إلى أمة معينة والتعلق بها، أما "الحركة القومية" فهي السعي لتحقيق هذا المفهوم، أما "الأمة" فهي الروابط المشتركة مثل الاشتراك في الأصل وهو مفهوم عرقي سلالي، ووحدة اللغة والوحدة العقديّة "أي الدين" أو ما يقصد بها "الإيديولوجيا" بالمفهوم السائد ^{٢١}.

ويرفض الدكتور علي مختار هذا فلا يمكن أن تكون اللغة تعني أمة واحدة مثل الأنجليز والإيرلنديين والأمريكيين في حين تعتبر سويسرا أمة موحدة رغم تعدد اللغات فيها. كما يرفض علي مختار، على غرار علماء الاجتماع والانتروبولوجيا الاجتماعية أو السياسية، أن تكون الإيديولوجيا (العقيدة) معيارا في بناء الأمة، فلم يدّع أحد أن الديانة المسيحية قد خلقت من معتققيها "أمة" واحدة إذ ليس الإنجليز والفرنسيون والألمان بأمة واحدة . وذات الاعتراض ينطبق على الاتحاد السوفياتي السابق، رغم وجود الإيديولوجيا الماركسية الوحيدة ^{٢٢}.

على أن الدكتور عزت حجازي " يتبنى تعريف "ساطع الحصري" الذي يثمن العامل اللغوي في بناء الأمة بقوله: "اللغة (العربية) سكبت عقول العرب في قالب واحد وركزت طبائعهم، وجعلت منهم أخلاقيا وروحيا أمة واحدة" ^{٢٣}.

ويستعرض المفكر سمير أمين تعريفه الخاص للأمة مؤكداً، رغم ماركسيته، أنه: " لا العلم البورجوازي ولا الاختزال الستاليني الذي شدد على تفرد التعريف الماركسي الروسي عن الأمة بالصحة والدقة قادران على تقديم إجابة علمية عن الأمة ضمن إطار العالم الرأسمالي الحديث، لذلك يبدأ سمير أمين في تعرضه لظاهرة الأمة من التمييز بين الجماعة الأثنية والأمة،

^{١٩} - ابن منظور، لسان العرب، بيروت، دار صادر، المجلد (٤) ص(٥٧٤)، المجلد (٨) ص(١٨٨)، المجلد (١٢) (٢٢٠، ٣٨).

^{٢٠} - Encyclopedia Universalis.vol.11 p(566)

^{٢١} - مختار(علي) المصدر السابق ص (٦٢)

^{٢٢} - مختار(علي) المصدر السابق ص (٦٢).

^{٢٣} - حجازي(عزت)، الشخصية العربية مصدر سابق، ص ص (١١-١٠).

فهو يزعم أن "الجماعة الأثنية تفترض الوحدة اللغوية والثقافية للمجتمع المحلي واتساق الرقعة الجغرافية والوعي بالاتساق الثقافي، حتى ولو لم يكن كاملاً لوجود لهجات أو مذاهب دينية مختلفة بين المقاطعات وبعضها البعض"^{٢٤}. أما الأمة فتفترض الجماعة الإثنية، ولكنها تتعدى هذا البعد وتبعا لذلك تظهر الأمة عندما تقوم طبقة اجتماعية من خلال السيطرة على جهاز الدولة المركزي بضمان الوحدة الاقتصادية للمجتمع، أي عندما تحقق التنظيم الذي تفرضه هذه الطبقة المسيطرة ارتباطاً للمقاطعات المختلفة في مصير واحد من خلال تنظيم إنتاج ودوران وتوزيع الفائض الاقتصادي^{٢٥}، وهكذا ييلور سميير أمين مفهومه للحقيقة المسماة "الأمة" في أن :

- الأمة ظاهرة اجتماعية قابلة للظهور في كل مراحل التاريخ فهي ليست مرتبطة بنمط الإنتاج الرأسمالي..
- لا يرتبط ظهور الأمة بالتواصل الجغرافي عبر لغة واحدة (لا يمنع ذلك وجود اللهجات) ولكن أيضاً بوجود طبقة اجتماعية تسيطر على الدولة المركزية وتضمن الوحدة الاقتصادية للمجتمع، وليست هذه الطبقة هي البورجوازية الوطنية.
- إن ظاهرة الأمة يمكن أن تقوى أو تضعف وتتلاشى، تبعا لقدرات الطبقة الاجتماعية على دعم الأواصر الوحدوية أو فقدانها، وفي الحالة الأخيرة فإن المجتمع يمكن أن يتراجع الى تجمعات إثنية لا قوام لها رغم قربها من بعضها على غرار الواقع الحاصل في العراق بعد الغزو الأمريكي. لكن سميير أمين يشدد في إطار تأكيده على الجماعة الإثنية كنقطة بدء للأمة حيث يعتقد أن المجموعات الإثنية المتفككة والقريبة من بعضها يمكن أن تتشكل في أمة أو أكثر، إذا سمح التاريخ مرة أخرى لطبقة اجتماعية بأن تحقق المهام التوحيدية التي تجعل من الممكن التمييز بين الأمة والجماعة الأثنية، كما يضيف أمين مقوم "اللغة" وخصوصية الوحدة الثقافية أسساً لبناء "الأمة".

← ولعل هذا المنطق الفكري النظري أسس لواقع الدولة الأمة في منطقتنا العربية، حيث انبرت النخب الحاكمة للدولة الوطنية المستقلة بعد سقوط الامبريالية المباشرة إلى صياغة مشروعها الوطني الخاص بمقاربات خصوصية مهدت لنحت هوية جماعية اقليمية وشخصية قومية قطرية بديلا عن الشخصية القومية العربية الوحدوية، بل وربما نقبض وخصم لها.

٣,٢,٢ - في تقويم مفهوم الأمة :

- نسوق مما تقدم الملاحظات التالية حول تشكّل "مفهوم الأمة".
- تأكيد التفكير الغربي الكلاسيكي على ربط مفهوم الدولة بمفهوم "الأمة"، حيث يعتقد دوركايم أن الأمة مجموعة بشرية يرغب أعضاؤها لأسباب إثنية أو تاريخية العيش في ظل القوانين نفسها ويكونون دولة واحدة صغيرة كانت أم كبيرة .
 - التداخل بين مفهوم الأمة ومفهوم الشخصية أو الهوية الجماعية متغيرة الطموحات والوعي والتعلق والانتشار، والمرتبطة بمفهوم الدولة سواء كانت هذه الدولة موحدة وقائمة أو تطمح لتشكيل دولة موحدة مستقبلا وتبحث عن خصائصها الأصلية بما يؤكد هويتها ومنطلقاتها وهو ما ذهب اليه "جوهان".
 - تعتمد الفكر الماركسي وخاصة الستاليني ربط ظهور الأمة بقيام الرأسمالية، حيث يصرح ستالين بقوله: "لم تكن ولا كان ممكناً أن توجد أمم في مرحلة ما قبل الرأسمالية نظراً لأنه لم يكن قد وجدت بعد أسواق قومية ولا مراكز قومية ولا ثقافية".
 - إن الاختلاف حاصل في تحديد مفهوم "الأمة" بين مختلف المذاهب الفكرية بل وحتى داخل أتباع المذهب الايديولوجي أو الفكري الواحد على غرار سميير أمين الذي نقد الستالينية بقوله "الأمة ظاهرة اجتماعية يمكن ان تظهر في كل مراحل التاريخ الانساني وليس ظهورها متلازماً بالضرورة مع ظهور نمط الإنتاج الرأسمالي".

^{٢٤} - أمين (سمير)، الأمة العربية القومية والصراعات الطبقيّة/نقلا عن علي مختار .

^{٢٥} - أمين (سمير)، النمو اللامتكافئ نقلا عن علي مختار .

إن صعوبة تشكل مفهوم واضح "للأمة" في البيئة العربية يرجع الى أزمة المصطلح عند العرب الذين نقلوا جميع المصطلحات المتصلة بمباحث "الشخصية القومية" معزولة عن ظروف صياغتها وخصوصيات تطبيقاتها ومفارقاتها لتراثنا أو واقعنا وفي هذا يقول د. أحمد عبد المعطى حجازي في كتابه "رؤية حضارية طبقية لعروبة مصر": "إذا كنا (أي نحن العرب) قد استعرنا معظم مصطلحاتنا الجديدة من الأوروبيين فقد استعرنا منهم في الوقت نفسه المفاهيم التي تعبر عنها هذه المصطلحات".^{٢٦}

٤,٢,٢ - التقويم العروبي لمفهوم "الأمة"

ويرجع د. عفيف البوني غياب مفهوم عربي دقيق لمصطلح الأمة في دلالاته القومية إلى التبعية في الفكر والتفكير السياسي العربي الى الغرب تماما كما هو الشأن في دلالة الهوية " لذلك صار لزاما على الفكر العربي أن يتعرب" ذلك أن مفهوم الأمة قديم قدم الحضارة البشرية كحقيقة وجود، غير أن وعي المفهوم وصيغ وأشكال التعبير عنه تنوعت وتطورت وتباينت وفقا للحاجات والتحديات والظروف ووفقا لدرجة الوعي الاجتماعي والسياس والتاريخي، ويؤكد " البوني " الوعي بالانتماء إلى أمة أي الوعي بتميز "الذات الجماعية" عن غيرها أو عن الآخر ليس وليد الاتصال بالغرب كما يزعم اتباع المستشرقين وتلاميذهم من العرب، على اختلاف انتماءاتهم الفكرية. ويصوغ البوني التعريف التالي: "الأمة ظاهرة اجتماعية (جماعية بشرية) ترتبط بينها روابط مشتركة وهذه الروابط تخلق بفعل الاستمرارية والصلابة التاريخية ملامح شخصية قومية واحدة وهذا يعود إلى بروز عنصر الوعي والاعتزاز بهذا الإنتماء في الضمير الجماعي والوجدان الشعبي لكل أفراد الأمة الواحدة" وهو مفهوم يشمل الأمة الموحدة أو الأمة المجزأة.

ويمكن رصد الخصائص التالية حول توفر المقومات الحضارية للأمة العربية في تونس من خلال تعريف د. عفيف البوني ورؤيته القومية العروبية:

- إن الهوية الحضارية في تونس تؤكد انتماء التونسيين إلى أمة عربية منذ الفتح الإسلامي وهو ما تؤكد اتحاد خصائص التاريخ والثقافة واللغة والحضارة العربية .
- إن تعريب تونس لا يمكن اعتباره بحال من الأحوال غزوا خارجيا باعتبار أن التعريف إنما هو صياغة جديدة لحياة سكان هذه الأقاليم اقتضاها قانون التطور الانساني.
- إن الإسلام في علاقته بمفهوم الأمة يمكن اعتباره عامل وحدة بين الغالبية العظمى، لكن التعريب يظل أقوى تأثيرا وأوسع انتشارا بين جميع العرب، إذ لا يزال قطاعا هاما من سكان الشرق يدينون بالمسيحية بحيث اندمج هؤلاء المسيحيين في الحضارة العربية كليا باستعمالهم للغة العربية كلغة قومية بما في ذلك الفروض والطقوس الدينية .
- إن إثارة المسألة العرقية والعنصرية بغاية تعطيل مفهوم الأمة أمر مردود استنادا إلى علم الانساب، إذ لا وجود لأمة تقوم على النقاء العرقي. فمفهوم الأمة مفهوم حضاري ثقافي تاريخي ليس له علاقة بالأعراق والأنساب لا من قريب ولا من بعيد.

^{٢٦} - البوني (عفيف) : وعي الهوية العربية في الفكر التونسي الحديث، منشورات العالم العربي، باريس(١٩٨١) ص ١٢-١٣-١٤.

- إن تشكل مفهوم الأمة العربية في تونس لم يكن وليد صدفة، بل كان نتيجة التراكم التاريخي، من ذلك تماثل أنماط الإنتاج والحياة في كل أقاليم الوطن العربي وقد أدى هذا التماثل والتشابه في ظل الاحتكاك والتفاعل والتلاقح والاتصال والتكيف والتراكم إلى إنتاج ثقافة أو مجموعة من الثقافات المتماثلة وهذا واحد من العوامل التي تفسر لنا نجاح حركة التعريب والتوحيد القومي للعرب في العصور الإسلامية.
- لقد حافظت الشخصية العربية في تونس على قوتها رغم تعدد المحاولات اليائسة لاجتثاثها، ورغم ما مرت به خلال عصور الانحطاط وظلام التخلف والحروب الصليبية ومحاولات طمس مقومات الهوية خلال الحقبة الاستعمارية أو حتى بعدها.
- إن الاختلاف بين أقطار الأمة العربية إنما هو في الحقيقة تنوع ضروري مطلوب وهو عامل قوة وغنى وتكامل، ولا تتناقض البتة بين ما هو وطني إقليمي وبين ما هو قومي عربي.

٣ - القومية القطرية في تونس قبل الاحتلال الفرنسي

١,٣ - المسوغات التاريخية للقومية التونسية

- إن مشكلية الأمة في البلاد العربية أفرزت ثلاثة اتجاهات متباينة حولها تتراوح بين الشمولية والخصوصية: النزعة الأولى: تعتبر أن الأمة العربية هي حقيقة تاريخية حضارية تتسع إلى كل البلدان العربية كأداة تخاطب في مستوى النخبة والعامّة أيضا^{٢٧} سمير أمين.
- النزعة الثانية: فهي تتسم بالنظرة الإقليمية للذاتية^{٢٨} عبد الله العروي.
- النزعة الثالثة: اتخذت موقفا ائتلافيا بأن ذلك الإزدواجية وجعل منها مستويين لنفس الظاهرة^{٢٩}.
- وهكذا تتراوح المواقف بين التأكيد على القواسم المشتركة أو التركيز على عناصر التنوع بين مقاربتين "العروي" و"سمير أمين" العروبية رغم انصوائهما تحت مفهوم القومية. وإذا كانت فكرة "القومية التونسية" نموذجا أقرب إلى قناعات "العروي" ومنطلقاته فإن الواقع التاريخي أثبت تداعيات متعددة حول "التونسية" والتونسنة Tunisation كمدخل للقومية القطرية في تونس لها سندها التاريخي ومؤثراتها ودواعيها قبل انتصاب الحماية الفرنسية، أي منذ عصر النهضة بحيث يمكن تسجيل الملاحظات التالية:

- ١- إن انبثاق مفهوم الأمة التونسية كان وليد تصدع الامبراطورية العثمانية منذ القرن السادس عشر، وأدى هذا التطور إلى تكوين مصالح سياسية قطرية تخص أترك إفريقيا (الحسينيون).
- ٢- تراجع دور التشكيلة الاجتماعية التركية المنتفذة والمتمتعة بالإمتياز الإداري الذاتي في المنتصف الأول من القرن ١٩، مما مكّن السكان الأصليين بالبلاد من المشاركة في أجهزة الدولة أكثر، وهو أمر سينعكس على خيارات النخبة الوطنية أثناء الحقبة الاستعمارية إلى نهاية الحرب العالمية الأولى على أقل تقدير.

²⁷ -Amin,Samir, La nation arabe.Nationalisme et lutte de classes,les eduiions de Minuit-Paris colin,1974, P (76-81).

²⁸ -Irwi,Abdallah, L'origine sociales et culturelles du nationalisme marocain (1830-1912),Paris,1977.

²⁹ -chesneaux, Jean,Le processus de formation des nations en Afrique et en Asie(Essais d'analyse marxiste).la pensée,n°119,1965,P76 .

- ٣- حالة الاصطدام بين السلطة الحسينية الحاكمة بالإيالة التونسية مع الباب العالي رفضا لهيمنتها المباشرة على تونس، أفرزت مظاهر من الاستقلالية الوطنية وانجرار إلى واقع "الهوية الذاتية" للبلاد التونسية والقومية القطرية بها.
- ٤- حالة الاندماج الثقافي والاجتماعي للأثنية التركية الحاكمة ضمن أغلبية من أهل البلد ولا سيما بعد زوال الازدواجية اللغوية في مستوى الإدارة (العربية/التركية) والتي اضمحلت وتراجعت بتدهور حكم الأتراك ابتداء من عهد امحمد باي مما خفض من وطأة الفتوية في صلب المجتمع الذي يمثل السلطة الحسينية بالمعنى الواسع.
- ٥- حالة العداء الدائمة بين بايات تونس ودايات الجزائر دعم الشعور "الموطني". وجذر لدى السكان المحليين الانتماء إلى "كرسي تونس" أي السيادة الحسينية منذ القرن السابع عشر حتى تفاقم التحدي الاستعماري.
- ٦- اعتراف الدول الغربية بالجنسية التونسية أثناء حالات الصدام مع الجزائر وطرابلس خلال القرن التاسع عشر، وذلك على حساب التمثيل العثماني للمصالح التونسية بالخارج في توجه يتوج تعيين القناصل (الاستقلال الذاتي للديبلوماسية التونسية) ٣٠.
- ٧- نشوء القومية القطرية وهي ظاهرة جديدة في تونس ولكنها ليست غريبة في ظرفية تأقلمت فيها الطبقة الحاكمة وتأثر فيها بعض المثقفين بالأفكار الغربية.

٣. ٢ - بدايات وعي "الدولة الأمة" في تونس:

يعتقد التوفيق البشروش أنه من البداهة في نظر القبائل والعلماء قبل الاحتلال أن تستمد "الأمة" التونسية مقوماتها من ذاتها. ويتمثل قطبا الأمة من الوجهة التاريخية في الارتباط السري بالأرض من حيث هي مسقط الرأس، وكذلك في الانتساب لعالم روحي، من حيث هو يتسع إلى دار الإسلام، فالأخوة الإسلامية لا تقف إلا حيث تبدأ دار الحرب، والأخوة الدموية تجعل من العناصر الأجنبية عن روابط القرابة بمثابة الدخلاء. وأن هذه الظاهرة الانقسامية قد تغافل عنها أحمد باي عندما صرح: " فإننا وإن جمعنا الأخوة الدينية والخدمة السلطانية لا ننسى نسبتنا التونسية"، وكأن تونس هي الأمة والدولة هي السلطة العثمانية. وإذا سلمنا أن التشكيلات الاجتماعية التي ساست القطر التونسي منذ أواخر القرن السادس عشر كانت تدافع على حساباتها المادية، ذلك أن عدم ارتباط الاقتصاد التونسي بالاقتصاد العثماني إلى حد التبعية سهل على الدايات ثم على البايات تطلعاتهم الاستقلالية مع ولاء ظاهري أو رمزي للخليفة نظرا لوجهته الدينية في قلوب "الأمة الإسلامية"، أي دون أن تتحول التطورات القومية في تونس إلى كره للعثمانيين مثلما آل الأمر إليه في الشرق العربي، لقد كان التعلق بالخلافة متينا جدا، أما الشعور بالعروبة فليس له أثر بعد حيث لم يتشكل الوعي العروبي إلا بعد تقلص النفوذ العثماني وانقراض الخلافة .

← هكذا إذن يمكن تمييز ثلاث مستويات لتصور مفهوم "الأمة" في تونس قبل الحماية:

- الأمة الفتوية (العصبية الإثنية Ethnique): وأصحاب هذا التصور يطالبون بالمشاركة في الحكم ويقبلون أن تختص فئة مسلمة في مباشرة مهام السلطة وإن كانت أجنبية الجنس بشرط أن لا يقع المساس بالعادات والشرف.
- الأمة الإسلامية: المنتسبة للخلافة العثمانية، وأصحاب هذه النظرية يرون أنه أمام الدين تضعف كل الأوضاع والعادات القطرية، ومآل هذه النزعة الاصطدام بالنزعة الوطنية الجنسية.

٣٠ - بشروش (توفيق)، القومية القطرية في تونس قبل الحماية، ملتقى الذاتية العربية بين الوحدة والتنوع، مصدر سابق، ص (٩٧-١١٩).

- الأمة الجنسية La nationalité: اندرجت في العرف الدبلوماسي آنذاك باستعمال مصطلح (nation) للدلالة على "الإيالة التونسية" واستخدم القناصل الأجانب nationalité tunisienne للدلالة على الانتماء الإقليمي التونسي، وأتباع هذا المذهب يطالبون بالمشاركة في الحكم لفائدة أهل البلاد ويأنفون تركه لعناصر أجنبية وإن كانت مسلمة. وسيؤيد هذا التوجه نفسه، خاصة بعد انتصاب الحماية الفرنسية.

← على أن المشكل الذي سي طرح نفسه هو كيف لهذه القوميات الثلاث أن تتعايش إذا ما قدرنا أن "الوطنية القطرية أو الجنسية" سوف تحتل الساحة على حساب التوجيهين الآخرين؟ ينجر عن ذلك بروز "تيار أخوي" عبر عنه محمد الشاذلي بن القاضي سنة (١٩٣٨) فكتب يقول: "وما طرأ على هذه الأخوة فخلخل بنيانها وزعزع دعائمها النزعة الطائفية التي تغنى بها أبناء هذه العصور، وتعوّضوا عن الأخوة الإسلامية بالفوارق الجنسية، فأصبحت الأمة التي كانت تفخر بنسبتها إلى الإسلام ولا ترضى عنه بديلاً تنتسب اليوم إلى جنسيات مختلفة، هذه تركية وهاتيك مصرية فرعونية وهذه تونسية وهلم جرا"^{٣١}.

← لذا فسوف يغلب تيار الأمة الجنسية ودعائه بقية الاتجاهات، وهو ما أكده الأستاذ خليفة شاطر في مقاله: "بروز الهوية القومية في تونس" في استقرائه لمظاهر التمييز التونسي خلال مرحلة حكم الذبايات والبايات العثمانيين حيث تعددت أشكال التكتل والاندماج الوطني القومي، ذلك أن الكيان التونسي لم يكن قطّ مجزءاً رغم قوة العصبية المحلية^{٣٢} (نظام القبيلة والعشيرة)، وهو ما تجلّى في الاندماج الاقتصادي الذي كرس قيام سوق قومية تقوم على التبادل التجاري للمنتوجات المحلية من مختلف جهات القطر، أما الاندماج السياسي فقد دَعَمه إنشاء جيش تونسي زمن حكم أحمد باي ساهم في توطيد أركان الدولة وشدّد الارتباط بين المركز والأطراف، أما التكتل والاندماج الشعبي فيتجلّى خاصة: في تكتل سكان الإيالة ولو بصفة وقتية ضد الحكومة سنة (١٨٦٤) من خلال انتفاضة علي بن غدام، كما مكن تكتل الشعب التونسي من مقاومة الاحتلال الفرنسي سنة (١٨٨١)^{٣٣}. وقد حققت هذه المحنة اندماج "الشعب التونسي" ضد المحتل والسلط الحكومية المتخاذلة^{٣٤}.

← ويرجح د. عفيف البوني في استقراء تاريخي نشأة الدولة القومية القطرية في تونس إلى بدايات عصر النهضة التونسية والتجارب الإصلاحية التحديثية التي شهدتها الإيالة التونسية وبخاصة الإصلاحات الدستورية وتحديد عهد الأمان (١٨٥٧) ودستور (١٨٦١) كمظهر من مظاهر الاستقلال عن الخلافة العثمانية، والذي حاول مختلف بايات تونس تكريسه منذ عهد المشير أحمد باشا باي. ومن أهم مظاهر هذه النزعة الاستقلالية:

- **إيفاد القناصل وتوقيع الاتفاقيات الدولية** واعتماد نقيب يتابعون عن كثب حالة ومشاكل المهاجرين التونسيين والتجار خارج القطر التونسي.
- **إيفاد خير الدين باشا إلى اسطنبول في عام (١٨٦٤) مبعوثاً رسمياً من قبل الباي للحصول على "فرمان"** من الباب العالي يتضمن الموافقة الرسمية على الاستقلال إلا أنه رجع مصطحباً فقط "رسالة وزارية" على أنها ترضي طلب الباي المتضمن اعتراف السلطان رسمياً بحقوق العائلة المالكة في وراثته الحكم الحسيني بتونس ضمن إطار الخلافة العثمانية.

^{٣١} - البوني(د. عفيف) وعي الهوية العربية في الفكر التونسي الحديث، مصدر سابق ص(٥١-٥٢).

^{٣٢} - بن القاضي (محمد الشاذلي)، الأخوة الإسلامية، المجلة الزيتونية، جويلية (١٩٣٨) ص (٤٠١-٤٠٤).

^{٣٣} - شاطر (خليفة) بروز الهوية القومية في تونس، ملتقى الذاتية العربية بين الوحدة والتنوع. مصدر سابق ص(١٨٩-٢٠٣).

^{٣٤} - شاطر (خليفة) حول مفهوم العصبية في تونس، كراس تونس (١٩٧٧)، ص(٦١-٧٣).

- تكليف الباي خير الدين مرّة ثانية على رأس بعثة إلى اسطنبول في العام (١٨٧١) لنفس الغرض، لكنه رجع هذه المرة بـ"فرمان" سلطاني يعترف لتونس باستقلال داخلي في إطار الخلافة العثمانية دائما.
- اتزان نزعة التخلص من التبعية العثمانية بالتأثير الأوروبي والاستعماري لتعويضها بتبعية أخرى في نطاق التكالب الإمبريالي على نهب الثروات والخامات والسيطرة على الأسواق والمجالات الحيوية .
- تحول تونس إلى مملكة من الناحية الشكلية وذلك ضمن السيادة العثمانية، يمارس فيها الباي حكمه بالكامل بمقتضى التفويض السلطاني، لكنها من ناحية أخرى وقعت تحت الضغوط الغربية الاقتصادية والسياسية المباشرة .

٣,٣ - إرهابات نشأة القطر القومي التونسي:

- لمسنا فيما سبق توجهات فكرية واتجاهات سياسية ووعي اجتماعي يتميز الخصوصية التونسية، لقد حقق الأب "أ. ديمرسمان" سبقا حين تعقب "فكرة الوطنية في الإنتاج الفكري" التونسي قبل الحماية (١٨٨١) وقد جمع أحد عشر (١١) لفظا له صلة بفكرة الوطنية وهي: [تونس/ بلد/ قُطر/ أمة/ إيالة/ بيت/ مملكة/ دولة/ وطن/ استقلال] ^{٣٥} وقد استعمل ابن أبي دينار ألفاظا مثل: (بلد/ مملكة/ دولة/ دار/ وطن/ أهل/ إخوان/ ملة) ^{٣٦}.
- أما مفردات القرن التاسع عشر والأكثر استعمالا فهي: (قطر/ إيالة/ استقلال)، وقد ورد "الوطن" بمعنى "المدينة" أو "تراب القبيلة" أو "تراب السيادة" أو "الانتماء الجغرافي" بعد الهجرة أو "الانتساب الإداري" أو بمعنى "الجهة". ويرجع د. عفيف البوني نشأة ما أسماه "الكيان التونسي" إلى فترة الحضور العثماني في تونس لتستمر إلى حدود الاحتلال الاستعماري الفرنسي طارحا بذلك "قضية الحدود": في أبعادها الرمزية والسيادية الممهّدة لنشأة القطر التونسي ككيان سياسي:
- أصبحت لتونس حدودا غربية بعد احتلال الجزائر، وكانت الصراعات على الحدود يحركها ويشجع عليها الحكام الأتراك في كل من الجزائر وتونس، وحتى بعد استقلال كل من تونس والجزائر ظلت مشكلة الحدود قائمة بين حكومتي القطرين ولم يقع تسويتها إلا عام ١٩٦٧، بعد إبرام اتفاقية حدودية على أساس الخرائط الإدارية الفرنسية التي وضعتها سلطات الاحتلال الفرنسي للبلدين، وحتى خلال التسعينات جدت خلافات حدودية تم على أساسها الترسيم النهائي للحدود بين البلدين.
 - أما الحدود بين كل من تونس وليبيا فلم تكن مؤشرة إلى أن سعى الاستعمار الفرنسي بالاتفاق مع تركيا إلى وضع هذه الحدود التي ضبطنها معاهدة الحدود بين البلاد التونسية وطرابلس الغرب بتاريخ ١٩ ماي عام ١٩١٠ من الطرفين المحتلين التركي ^{٣٧}.
- عن ليبيا والفرنسي عن تونس، ولا زالت قضية الترسيم النهائي للحدود معروضة على محكمة لاهاي بالاتفاق بين البلدين ^{٣٨}.
- مازالت المسألة الحدودية بين تونس والجزائر ومع ليبيا تطرح إلى اليوم إشكالات على غرار ما سلف من شأن قضايا القبائل المختلطة على المناطق الحدودية مثل قبائل "أولاد سعيد والحنانشة"،

^{٣٥} - البشوروش (توفيق)، القومية القطرية في تونس قبيل الحماية، مجلة مركز الدراسات الاقتصادية والاجتماعية، السلسلة الاجتماعية، العدد (٤) ندوة (الذاتية العربية بين الوحدة والتنوع) تونس، ١٩٨٩، ص (١٠٢) .

^{٣٦} - الفيرواني (ابن أبي دينار) المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، تحقيق محمد شمام، مطبعة الدولة التونسية، ١٩٦٧، ص (١٦).

^{٣٧} - البشوروش (توفيق) المصدر السابق.

^{٣٨} - انظر حيثيات ونصوص ومحاضر هذه المعاهدة في كتاب (المسألة التونسية والسياسة العثمانية ١٨٨١-١٩١٣) للدكتور عبد الرحمان تشايجي، نقله عن الفرنسية وعلق عليه الدكتور عبد الجليل التميمي، طبع دار الكتب الشرقية، تونس، ١٩٧٣، ص (٢٧٩-٢٩٣).

مثلا، والتي تعلن تبعيتها لقسنطينة مرة وتعلن تبعيتها لتونس خلال القرن ١٧ ولا زالت هذه القبائل تتواصل فيما بينها، والأمر ذاته يذكر بشأن قبائل أقصى الجنوب التونسي و كذا الشأن بالنسبة إلى جربة التي كانت تلحق مرة بطرابلس وأخرى بتونس...
 ← وهذا أمر لا يترك مجالاً للشك بأن الحدود المرسمة سياسيا لا تثبت حقيقة تاريخية ولم تقم أبدا على أساس جغرافي أو ثقافي أو حضاري أو لغوي أو اقتصادي أو ديني.

← إن الحديث عن تونس ككيان ماثل في التاريخ الحديث لم يكن حكرا على أصحاب النفوذ السياسي، بل نلمس آثاره أيضا في أنماط الإنتاج الفكري والثقافي من خلال جملة من مؤلفات أبناء تونس ومن أهم تلك المدونات التي التصقت بالطريقة التونسية نذكر :

عنوان التصنيف	المؤلف	تاريخ التأليف	الموضوع المتناول
"المؤنس في أخبار إفريقية وتونس "	محمد بن أبي القاسم الرعياني القيرواني المشهور بابن أبي دينار (ت ١٠٩٢ هـ)	١٦٨١ م	- تاريخ إفريقية وتونس منذ الفتح الإسلامي.
الحلل السندسية في الأخبار التونسية	الوزير السراج	(١٧٢٤-١٧٢٨)	
الخلاصة النقدية في أمراء إفريقية	محمد الباجي المسعودي (١٢٢٥-١٢٩٧ هـ)	١٢٧٣ هجري	تاريخ إفريقية منذ الفتح الاسلامي حتى حياة الكاتب.
إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الامان	أحمد بن أبي الضياف (١٨٠٣م-١٨١٧م)		عن أمراء إفريقية في القيروان والمهدية وتونس وركز على العهد الحسيني والتاريخ الحديث والمعاصر للمؤلف.
صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار	محمد بيرم الخامس (١٨٤٠م بتونس/١٨٧٩م بالقاهرة)		التاريخ العربي لتونس مع الحرص على اعتبارها ولاية عثمانية باعتبار أصوله التركية مع حبه لتونس التي عرفها على أنها مملكة مستقلة بالإرادة.
الكتاب الباشي	حمودة بن عبد العزيز ولد في (١٧٨٥/١٢٠٢م)	فترة حكم الباشا علي بن حسين (١٧٥٩-١٧٨٢)	أحداث البلاد وتعاقب الأمراء عليها منذ العهد الحفصي وخلال عهد الباشا علي بن حسين تلبية لرغبة هذا الباي ووفق رؤيته.

◀ وهكذا يخلص الأستاذ خليفة شاطر إلى أن تونس انفصلت عن البلاد العربية الإسلامية إثر احتلالها سنة (١٨٨١) بدعوى "الحماية" *^{٣٩} وأصبحت تنتمي إلى منطقة النفوذ الاستعماري، وتوخت السلطة الاستعمارية سياسة استيطانية وشجعت نشر اللغة الفرنسية على حساب اللغة العربية الإسلامية، لكن تونس لم تفقد ميزتها كشعب قط، فنشأت حركات قومية وطنية لكنها لم تفكر قط في الانعزال داخل المجال التونسي، بل وسّعت تعاونها مع الحركات القومية الاستقلالية في أنحاء البلاد الإسلامية وخاصة شمال إفريقيا. ويمكن ذكر تحركات علي باش حامبة مؤسس حركة الشباب التونسي في المجال العثماني. والتنسيق بين حركات التحرر المغاربية (باريس جنيف) وكذلك تأسيس مكتب المغرب العربي في القاهرة إثر الحرب العالمية الثانية. وقد خلقت الأنظمة الاستعمارية ظروفًا خاصة في كل بلد مغاربي، وبعد أن تمكنت حركات التحرر من كسب معارك الاستقلال، ومن ثم خاضت كل نخبة حاكمة قتيبة في الدولة الوطنية الناشئة تجربتها التنموية الخاصة أغرقتها في الاستقلالية، وهو ما عمق مدلول الهوية القومية القطرية خاصة زمن الحكم البورقيبي في النموذج التونسي.

١- الدولة الوطنية: وتكريس لمفهوم "الأمة التونسية"

بعد جلاء الاحتلال الأجنبي الفرنسي ونشأة الدولة الوطنية المستقلة في تونس في ٢٠ مارس ١٩٥٦، وإرثه جهازا خلفته المرحلة الاستعمارية، تحول تدريجيا في بنيته الإيديولوجية والمؤسسية إلى "دولة أمة" (Etat-Nation) مكونة في الغالب الأعم من زعماء حركة التحرر (الحزب الدستوري المؤسس من قبل الشيخ عبد العزيز الثعالبي في العام ١٩٢٠)، الذي انقلب عليه الزعيم الحبيب بورقيبة ورفاقه الشبان في مؤتمر قصر هلال سنة ١٩٣٤، ليترأس بورقيبة أول حكومة تونسية بعد الاستقلال مستندا إلى ما أطلق عليه "الشرعية التاريخية" العاجزة عن الاستماع إلى الأصوات الأخرى وسرعان ما تحولت "إيديولوجيات التحررية" إلى "إيديولوجيات البناء الوطني" وانصهرت مرحلة الكفاح مع مرحلة الاستقلال انصهارا في بوتقة واحدة، وهنا تكمن المفارقة الكبرى، مفارقة "الدولة" التي أريد لها أن تتحول إلى "أمة" مع ألياتها وهويتها "قطرية محضة"^{٤٠}. فالإيديولوجيا الوطنية التي انبثقت في إطارها الأمة، كانت في جوهرها حالة وجدانية وشعورية تأكل الهياكل المصاحبة لها خالقة بذلك فراغا كبيرا، ولكنه سرعان ما تطور باتجاه التشدد حيث اتخذت الإيديولوجيات الوطنية محتوى مركزا على "التونسنة" Tunisianisation واحتمت بجهاز "الدولة القطرية"، وقد عمل الخطاب الرسمي آنذاك وفي هذا السياق على تفخيم الخصوصية، وتوسيع الفروق وإعلاء شأن القطرية متّخذا من ذلك غطاء إيديولوجيا لإلغاء هامش التعددية الفكرية والسياسية المحدود القائم قبل المرحلة الاستعمارية وأثناءها^{٤١}.

٤. ١- مشروع الدولة الأمة والمشروع البورقيبي:

لقد تميزت المرحلة اللاحقة لسنة ١٩٥٨ بعمق قطرية الدولة الوطنية وعم التنازع من أجل بناء كيان مستقل، وهكذا تبنت تونس تجربة "الدولة الأمة القطرية" فكانت بذلك نظاما سياسيا متميزا عن بقية الدول القطرية في المنطقة المغاربية، متباعدة مختلفة في تجربتها

^{٣٩} - *شجعت كل من فرنسا وبريطانيا المجتمعات المستعمرة وغيرها من القوى الإقليمية على التوصل من الحكم العثماني بدعوى تحرير هذه الشعوب من سيطرة الدخيل وإقامة المشاريع الوطنية المحلية (القطرية) وذلك من خلال عديد المعاهدات والاتفاقيات المشتركة على غرار الحماية بتونس أو الانتداب بالشرق.

^{٤٠} - إبراهيم (د.سعد الدين)، "الدولة القطرية وسيناريوهات المستقبل العربي"، مجلة الوحدة السنة الرابعة. العدد (٤٨) المغرب، سبتمبر (١٩٨٨) ص (٥).

^{٤١} - وناس (د.المنصف)، "الدولة الوطنية والمسألة الثقافية في المغرب العربي"، سلسلة آفاق مغربية، سراس للنشر، تونس (١٩٩٥) ص (١٠).

التنموية "البورقيبية"^{٤٢}. ذلك أن الخطاب السياسي "البورقيبي" ظل خلال فترة الخمسينات والستينات وبداية السبعينات يمثل كيانا فكريا وسياسيا مغلقا على ذاته وقائما على ذاته، رغم تبعيته المرجعية الظاهرة إلى ثقافة أوروبا السياسية في العشرينات، كما أن إذكاء الخطاب السياسي وانغلاقه لا يخفي أن أدوات التحليل السياسية والنظرية تابعة مرجعيا للثقافة الغربية. مفاهيم: "الأمة" و"الديمقراطية" و"القومية" و"التخلف" و"الحضارة" .. هي مفاهيم تذكرنا بالأدبيات السياسية والنقاشات السائدة ضمن خطابات الحداثة الغربية. وبهذا يتضح أن الخطاب السياسي "البورقيبي" في تونس كيان متكامل من حيث المنطق الداخلي والفلسفة الخاصة والمرتكزات النظرية^{٤٣}. وهو خطاب يستمد شرعيته من صبغته الشمولية واتجاهه إلى كل الشرائح الاجتماعية بدون استثناء، من فلاحين وعمال وطلبة وموظفين، بأسلوب وصائي وتعليمي. كما أن شرعيته مستمدة من المشاكل اليومية "للجماهير الشعبية" في إطار توجيهي وعاطفي. على أن الخطاب السياسي البورقيبي في تقييم الأستاذ المنصف ونّاس اتسم بطابعه التكراري، أي أنه لا يتمحور إلا حول "الشرعية النضالية التاريخية" التي اكتسبها الزعيم "بورقيبية" الذي اختار لنفسه لقب "المجاهد الأكبر". أما بقية المكونات الأخرى للخطاب فعناصر عرضية ومرحلية مكتملة تذوب أمام خطاب الشخصنة. ويستخلص الدكتور ونّاس في استقراء إحصائي لمضامين الخطاب السياسي البورقيبي الأولويات الموضوعية التالية:

- أولا: التأكيد على الشرعية التاريخية و"تجربة الصّدام" مع الاحتلال الفرنسي ومعاناته النضالية.
 - ثانيا: التركيز على تميز الذاتية التونسية بحكم تميز "الدولة القومية" عن سائر الدول.
 - ثالثا: التأكيد على القيم التحديثية مثل "التحرر" و"مواجهة التخلف" و"للحاق بركب الحضارة" و"بناء مجتمع الرقي" و"الازدهار والتطور" ..
 - رابعا: التعرض لموضوعات أخرى تكملية وثنائية مثل القضايا الاجتماعية والأخلاقية العرضية والمحسوبة...
- ← ولعل العنصر الثابت في الخطاب السياسي هو "الطابع الكلياني الاندماجي" بين شخص الزعيم الملهم (charisme) ومكونات الدولة (المؤسسات والشعب) مما حول "الدولة البورقيبية" إلى مثال شمولي بارز في تاريخ المنطقة العربية شعارها: "امنحوا ثقتكم لبورقيبية وللدولة"، "لأن الدولة التونسية هي دولة الشعب بكامله. دولة كل مواطن في هذه الأمة" وهكذا يقترن مفهوم الدولة بمفهوم الأمة اقتارنا عضويا، فمفهوم الأمة هو الذي يمنح هوية قومية لشعب كان "ضائعا، متشرذما وفاقدا للهوية". في حين أن الدولة تمثل قاعدة الارتكاز والبنية التحتية لمشروع الأمة، ولذلك يفترض الخطاب السياسي أن المواطنة الحقيقية هي التي تعي دورها في ضرورة الالتفاف حول هياكل الدولة الجديدة^{٤٤}. **

٢.٤ - تأصيل نظرية "الأمة التونسية"

لسنا نتجنى على مفهوم "الأمة" أو أنصار الدولة القومية التونسية إذا ضفرنا برأي يؤصل لفكرة "الأمة التونسية" ويبحث عن جذورها التاريخية تأسيسا لها،

^{٤٢} - وناس (د. المنصف) المصدر السابق ص (١١).

^{٤٣} - وناس (د. المنصف) الدولة والمسألة الثقافية في تونس، الكتاب الأول، دار الميثاق للطباعة والنشر والتوزيع، تونس (١٩٨٨) ص (١٢١).

^{٤٤} - وناس (د. المنصف) المصدر السابق ص (١٢٢-١٢٣).

** يشير بورقيبية إلى بناء الدولة القطرية الحديثة على أساس أنها "الجهاد الأكبر" في مقابل "جهاد أصغر" هو تحقيق الاستقلال.

ولعله من أطرف من نظر لهذه الفكرة الأستاذ "البشير بن سلامة" أحد وزراء حكومات الزعيم بورقيبة وله في هذا رأي طريف وإن كان غالب ما رأينا فيه هو استرجاع "المجد تونس القديم" في رؤية تتسق ونظرية "الحق التاريخي" وهو موقف أدلى به في سياقات مختلفة من كتابه "الشخصية التونسية، خصائصها ومقوماتها"، وإن كان يستهل هذا التأصيل بالبحوث والنظريات الاجتماعية متسائلا هل يحق لنا أن نطلق على الشعب التونسي مدلول "أمة"؟ وتسفيبه بالتالي وفي آن واحد أحلام المتمغربين والمتمشقين وادعاءاتهم؟ وانتساءل مع المتسائلين متى يحق لشعب أن يطمع إلى تكوين أمة؟ وما هي شروط ذلك؟ لقد اتفق الفلاسفة وبالأخص علماء الاجتماع على أنه لا يمكن لشعب أن يصبح أمة إلا إذا "أظهر بصفة مستمرة إرادة حية جماعية للعيش، عيشة مشتركة وإذا عرف كيف يكون لنفسه الهياكل اللازمة لوجوده كأمة قائمة الذات، وكذلك إذا هو أمكن له أن تكون من الثقافة ونوعا من القدرة على أن يحكم نفسه بنفسه ويدير شؤونه هذه". ويستنتج بالتالي الأستاذ بن سلامة أن هذه أهم الشروط المتعارضة التي يجب أن تتوفر في شعب من الشعوب ليصبح أمة بمعنى الكلمة، وليسحب هذه الشروط وتوافرها في الشعب التونسي وتحققها في نموذج "الأمة التونسية" من خلال العلامات التاريخية بدءا من تاريخ قرطاج القديم إلى التاريخ الحديث ليؤكد تحقق مفهوم "الأمة التونسية" وذلك لتوفر هذه الشروط:

***الشرط الأول:** وهو الحرص المستمر في إرادة جماعية على العيش المشترك^{٤٥}. ويجب على ذلك بقوله: "أنه من السهل التدليل على ذلك.. فما دولة قرطاج البونيقية ثم الرومانية وما الإمارات العربية (الإسلامية) التي انتصبت في بداية الفتح الإسلامي والممالك المنبثقة من الأهالي المنسجمة معها بمؤسساتها ونظامها الكامل إلا دليلا على أن هذا الشعب يعرف كيف ينظم نفسه ويلتف حول حاكمه في رعاية هياكل متمدنة ذات فاعلية. كما أنه عرف كيف يثور عليها عند اختلال التوازن بينه وبينها وعندما تصبح مصلحته ثانوية بالنسبة للحاكمية..

***أما الشرط الثاني:** وهو أن يكون الشعب لنفسه الهياكل اللازمة لوجوده كأمة قائمة الذات أي عناصر اقتصادية مستقلة بذاتها كفيلة بتنظيم الحياة، فهو يؤكد أن الشعب التونسي كان يحس جاد الإحساس بانتمائه إلى مجموعة يجب الدفاع عنها وهذا بيبن في صمود هذا الشعب أمام الرومان ثم العرب الفاتحين ثم عرب بني هلال فالإسبان ثم الأتراك والفرنسيين. وفي كل هذه الفترات فإنه لم يذب وأبقى على كيانه رغم تقبله بين الإسلام والعربية، وانصهاره في هذه الحضارة العظيمة التي بات لا يعتز بها فقط، بل يثريها ويغذيها بروافد الغنى النوعي. فقيام الدول المتعاقبة على هذه الأرض واستقلالها في كل مرة يبنى بأن هناك طاقة في البلاد قادرة على تكوين الهياكل الاقتصادية والسياسية ورعايتها ورعاية استقلالها ولو مدة محدودة^{٤٦}.

***أما الشرط الثالث:** فهو، "وجود نوع من الثقافة الخاصة" ويعود الأستاذ بن سلامة إلى ذكر الفروق بين الثقافة والحضارة لتبرير احتفاظ الكيان التونسي بثقافته المستقلة في محيطه العربي الإسلامي وبالعودة إلى تعريف عالم الاجتماع "غاستون بوتول Gaston Bouthoul" المصرح بأن "الحضارة هي مجموعة أشمل يمكن أن تحتوي على عدة ثقافات"، ذلك أن الحضارة مجموعة عامة تغلب عليها المعارف العلمية والتقنية وأهم المذاهب الفلسفية. أما الثقافات وإن هي تفرعت عن الحضارة التي إليها تنتسب، فإن الفروق بينها تظهر في التقاليد الجمالية والتاريخية والأسطورية" ولهذا، فإنه يمكن لأمة ما أن تنتسب إلى حضارة بصفة عامة وتكون لها ثقافتها المميزة على غرار الثقافات الأوروبية والغربية، ولئن طبعت الثقافة العربية الإسلامية شعوبا وأمما مثل الفرس والهنود والترك عن طريق النهوض بها عبر اللغة العربية،

^{٤٥} - بن سلامة (البشير) "الشخصية التونسية خصائصها ومقوماتها"، ص (٤٥-٤٦).

^{٤٦} - بن سلامة (البشير) المصدر السابق ص (٤٨).

فإن انفصال هذه الأمم عن الخلافة الإسلامية أوقعها في الخصوصية الثقافية بعد استقلالها عن دولة الخلافة، لكن هل يصح ذلك على باقي الشعوب الإسلامية ذات الأغلبية الناطقة بالعربية فيما يعرف بالعالم العربي؟ وهل أن اشتراك الشعوب العربية في لغة واحدة ينتفي معه وجود ثقافات متميزة؟^{٤٧}.

يعتقد البشير بن سلامة أن التقاليد الجمالية الموجودة في مصر ليست هي نفسها الموجودة في المغرب أو في تونس وعليه فإن الاشتراك أو الاتحاد في مقومات الحضارة وهما اللغة والدين. لا ينفى بالكلية الفروق القائمة في التقاليد الجمالية والتاريخية والأسطورية الموجودة في مصر وفي المغرب أو تونس.

وهو ما يمكن أن نعبّر عنه بالاختلافات في أبسط مظاهر العادات واللباس وخاصة اللّغة أو اللهجة (أي اللغة العامية السائرة ودرجة الاستعمال في مختلف البيئات). وبالنسبة إلى تونس فإنّه ليس من الصّعب أن نبيّن ما لها من تقاليد جماليّة خاصة بها ومن رواسب تاريخية تجرّها من بقايا أساطير متميزة بقيت خالدة في ذاكرة أهلها من الأحداث القديمة التي صنعها الرومان، والوندال، والخوارج، والفاطميون، الشيعة والنّزّمان، والإسبان، والأترّك، والفرنسيون. ما يجعلها تحمل تقاليد خاصة، وبالتالي فلا ضير من أن تتمسك كل أمة من الأمم العربية بثقافتها الإقليمية القطرية المحلية وتنميها بما تحفظه وتحذقه من الثقافات الأخرى لتغذي نهر الحضارة العربية الإسلامية^{٤٨}.

***أما الشرط الأخير والرابع:** الذي يقيم به البشير بن سلامة الدليل على أن الشعب التونسي يكون "أمة" بآتم معنى الكلمة فهو "قدرة الشعب التونسي على حكم نفسه بنفسه"، وهذا يقتضي من جهة "وجود دولة" ومن ناحية أخرى "سيطرة أهل البلاد على مقاليد الحكم".

أما وجود دولة منظمة تركز على مجموعة من الناس مستقرين في أرض معينة تخضع إلى [نظام اجتماعي وسياسي وقضائي جمع بين يدي سلطة لها القوة القاهرة]، فهو أمر لا مرأى فيه منذ أحقاب قرطاج، التي أسسها الفينيقيون على مؤسسات ونظام اجتماعي وسياسي وإشعاع ثقافي، وبعده حكم الوندال ثم البيزنطيين والرومان والفتح العربي الذي أقام إمارات مستقلة أو شبه تابعة ذات ولاء رمزي فقط للخلافة في مناسبات مختلفة كالحكم "الأغلي" و"الحفصي" و"المرادي" و"الحسيني"، بل وحتى الحكم المستقل على غرار "الفاطميين".

◀ وبعد الحقبة الاستعمارية الفرنسية: انتهى الأمر بتكوين دولة لها ولأول مرة في تاريخ البلاد صفة الدّولة بآتم معنى الكلمة لأنها تركز على شعور المواطنين بأنهم يكونون دولة لأمة، وأمة منتمية إلى دولة، لها مقوماتها الحضارية ودينها وذكرياتها الممتدة في التاريخ، ومصالحها العاجلة والأجلة، وردود فعلها المشتركة الموحدة تجاه نفس الأحداث.

فكأن مفهوم "الدولة" لم يتم ولم يكتمل في هذه البلاد إلا عندما اكتمل مفهوم الأمة وبرز للعيان في وحدة شاملة ضد الاستعمار الفرنسي، ولهذا فإن التونسي لم يشعر فترة من فترات تاريخه بأنه يحكم نفسه بنفسه مثل هذه الفترة^{٤٩}.

^{٤٧} - المصدر السابق ص (٥١).

^{٤٨} - المصدر السابق ص (٥٤).

^{٤٩} - المصدر السابق ص (٥٧).

٤-٣- نقد القومية العربية لمفهوم الأمة التونسية:

يجيب دعاة القومية العربية أو الوجدويون العرب على غرار د. عفيف البوني في تونس ود. علي مختار في مصر على نظرية "الأمة الوطنية" التي أنعشتها في تونس المقولات "البورقبيية" بعد الاستقلال وبخاصة في الستينات، إلى استفادة دعاة "الدولة القطرية" من نتائج هزيمة جوان ١٩٦٧، أو ما اصطلح على تسميته "بالنكسة"، حيث ظهرت "دعاوى انهزامية" لم تكن لتظهر قبل ذلك بدعوى "الواقعية" و"المكاشفة" على غرار مقولة "جورج حنا" في مؤلفه "تصويب مفهوم القومية العربية" المكرس للإقليمية العربية: "أمم أنجلوسكسونية مختلفة تنتسب إلى قومية أنجلوسكسونية واحدة، وأمم لاتينية أمريكية مختلفة تنتسب إلى قومية أمريكية لاتينية واحدة، وعلى غرارها أمم عربية مختلفة تنتسب إلى قومية عربية واحدة"^{٥٠}.

وتعزيزا لمقولات المؤامرة ضد "الأمة العربية" يعتقد د. علي مختار أن "المراد من شردمة المنطقة العربية إلى قوميات إقليمية وأممية قطرية إنما هي مبرر لإدماج ما يعرف بدولة "إسرائيل"، لافتا النظر إلى المؤتمر العلمي الذي أقامته جامعة بيرنستون* في أمريكا^{٥١} في جوان (يونية) ١٩٧٨ لدراسة رسم خريطة جديدة لما يعرف "بالشرق الأوسط" يفتت المنطقة والدول الحالية مرة أخرى بعد "سايكس بيكو" وبعد قيام الدول العربية المستقلة في شكل دويلات عنصرية وطائفية ودينية صغيرة تجد فيها الأقليات المسيحية في لبنان وسوريا وفلسطين مكانا لها، ثم تنضم الأقليات الكردية في العراق وسوريا وإيران وتركيا، وكذلك السنة في لبنان وسوريا والعراق، يمكن تجميع كل من الدروز والشيعية والعلويين وغيرهم بحيث يكون للكيان الصهيوني حجم معقول بين هذه التجمعات الطائفية والعنصرية الهزيلة وتجد إسرائيل مبرر وجودها الطائفي والعنصري^{٥٢}. وهو واقع قد تؤكد مشاريع "الشرق الأوسط الكبير" أو "الشرق الأوسط الجديد" التي أطلقها الرئيس جورج بوش الابن إبان غزو العراق.

ومن ثم ينعي القوميون العرب على دعاة "القطرية" "الإقليمية" اغترارهم بالمقولات الاستشراقية والنظريات الغربية. فقد اطمأن البشير بن سلامة في ما ذهب إليه في معنى "الأمة التونسية" والتأسيس لها إلى نظرية عالم الاجتماع "فاستون بوتول" واعتمد شروطها ومقوماتها كمنهج للبحث عن مسوغات لتحديد مفهوم "الأمة القطرية التونسية". ويؤكد الأستاذ البشير بن سلامة اندراجه ضمن هذا التمشي مقدا استخلاصه التالي: "إذن بهذه المحاولة التي أردتها موضوعية وصلت إلى النتيجة المرجوة وهي أننا نكون أمة هي "الأمة التونسية" وأنه يحق لكل منا أن يتصور أمته، ويستجد في هذا الصدد بتصور أحد رؤساء الدول المستعمرة لتونس "جون بومبيدو Georges Pompidou"^{٥٣} ورئيس جمهورية فرنسا آنذاك والأمة الفرنسية عندما قال: "لا أظن أنه يمكن اعتبار الأمة مجرد تجمع عدد من الناس على رقعة من الأرض في فترة معينة ولا أقصر فهي للأمة مجرد الالتفات إلى ماضيها واستعراض أطوار تاريخها. ففرنسا هي بالنسبة إلي جميع العظماء والكتّاب والساسة. ولكنها أيضا خمسون مليوناً من الناس يعيشون في حدود مضبوطة ولهم لغة موحدة ومؤسسات ونمط من العيش الخاص. ولقد بين أرنست رينان (Ernest Renan)" [صاحب نظرية "تمرتب الأعراف"] أن الأمة ليست رابطة تخضع للجنس ولا للدين فقط،

^{٥٠} - مختار (علي)، حول القومية والعروبة والنهضة، (مصدر سابق) ص (١٠٤).

^{٥١} - **جامعة برنستون هي جامعة بحثية خاصة في إيفي ليج في برينستون، نيو جيرسي، الولايات المتحدة الأمريكية، تأسست عام ١٧٤٦ في إليزابيث باسم كلية ولاية نيو جيرسي انتقلت المؤسسة إلى نيويورك في ١٧٤٧ ثم إلى الموقع الحالي في وقت لاحق بعد تسع سنوات حيث تم تغيير اسمها على أنها جامعة في عام ١٨٩٦، كانت علاقات برينستون وثيقة مع الكنيسة المشيخية.

^{٥٢} - د. ميلاد (حنا)، "نعم أقباط لكن مصريون"، مدبولي، القاهرة (١٩٨٠) ص (١١٢).

^{٥٣} - جورج بومبيدو Georges Pompidou (1911 - 1974)، رئيس فرنسا من ٢٠ جوان 1969 حتى وفاته في 2 أبريل 1974. كما تولى رئاسة الوزارة في فرنسا في عهد شارل ديغول من 14 أبريل 1962 إلى 10 يوليو 1968. توفي بمرض السرطان وهو الرئيس الفرنسي الوحيد الذي توفي وهو في المنصب عرف باتجاهاته القومية الفرنسية.

إذ هي هذا كآه ولكن مع شيء آخر يمكن زيادته، هذا الشيء لا يمكن استشفافه ولا لمسها وهو يتجسم في نوع من التعبير، ولكنه موجود، وكل واحد منا يحس به في قرارة نفسه. ولي أنا شخصيا مفهوم بيولوجي للأمة فهي عندي كائن واحد. وهي بهذا، لها ماض وحاضر ومستقبل وهي في تطور مستمر، فيمكن أن يكون هناك تحول بطيء للأمة نفسها وللصورة التي ننظر إليها من خلالها وعلى كل للصورة التي نرى من خلالها علاقاتها مع العالم الخارجي "

ولعل انجرار الأستاذ بشير سلامة إلى الاستناد إلى مقولات الرئيس "بومبيدو" تأكيد على انخراطه في المقولات الغربية الاستعمارية وإسقاطها على الشعب التونسي بمقوماته الحضارية العربية والإسلامية... ونلمس هذا "التشويش" عند الدكتور البشير سلامة في استيعاب مفهوم "الأمة"، في ختام حديثه عن الأمة التونسية بقوله: "ذلك أن أمل الوحدة والثوق إليه قد تآرجح بين مفاهيم عديدة من أمة إسلامية إلى أمة عربية إلى أمة عربية إسلامية إلى... إلى.. وهذا هو صلب الموضوع. فمتى يكون المفهوم الواقعي البحث الباقي للحاضر والمستقبل معا، لا المرتكز على أمل مستقبلي لم يتضح محتواه بعد، ولم ينكشف موضوعيا وعلميا" ^{٥٤}.

◀ وفي ندوة تونس بعنوان "الذاتية العربية بين الوحدة والتنوع" ^{٥٥} التي أشرنا إليها سابقا، والتي عقدت في الفترة من ١٢ إلى ١٧ أبريل ١٩٧٨ ظهرت اتجاهات من قبيل ما ذهب إليه الأستاذ بشير سلامة في دراسة الدكتور خليفة شاطر التي تعرضنا لها بعنوان "بروز الهوية القومية في تونس" (لإثبات وجود قومية تونسية في مقابل القومية العربية). وكذلك من دراسة الأستاذ الهادي البالغ "الخصوصيات اللغوية والثقافية" (لإثبات أن اللهجات المحلية في الأقاليم العربية هي لغات، في مقابل اللغة العربية)، وغيرهما مثل الدكتور عزت حجازي والسيد عويس... كما قد يظهر من يكتشف أن الوطن العربي به أكثر من أربعين قومية بهذا المفهوم! وأنه علينا أن نعتزف بالحقوق المشروعة للقوميات وأن ينظر لفكرة أن أية أقلية سواء عرقية أو دينية أو مذهبية.. إلخ هي قومية أو في طريقها لأن تصبح قومية وأن القومية تسعى للتعبير عن نفسها في كيان سياسي مستقل آخر ^{٥٦}.

◀ ونلمس لدى الدكتور المنصف وناس موقفا مشابها من مشروع "الأمة التونسية" البورقيبي حين كان بورقيبية يعطي الهوية بعدا وطنيا شموليا، يعني التحديث والتقدم في إطار الأمة التونسية، ويستنتج تبعا لذلك أنه لم تكن هوية بورقيبية هوية عربية أو إسلامية وإنما هي "هوية تونسية" ضيقة، هدفها خلق الشروط الموضوعية لمشروع "الدولة الأمة" وفق مفهوم الغازي مصطفى كمال أتاتورك، ولعل ذلك ما يمكن تسميته في العلوم السياسية بـ"صناعة الأمة" (fabrication de la nation) ^{٥٧}. بل إن هذا التمشي خلق نمطاً في التفكير التونسي ^{٥٨}، مثله رفاق الزعيم بورقيبية في الكفاح الوطني، وكذلك بعض وزرائه والمتحمسين لأفكاره أمثال علي البلهوان والبشير بن سلامة ومحمد مزالي الذي أسس "مجلة الفكر" والتي كانت مجالا ومنبرا للتنظير لـ"التونسنة" Tunisiation و"الهوية التونسية" و"الخصوصية التونسية" و"الشخصية التونسية" و"القومية التونسية" و"الأمة التونسية".

^{٥٤} - بن سلامة (بشير) الشخصية التونسية، مصدر سابق ص (٥٨).

^{٥٥} - الملتقى الأول للجامعيين التونسيين المصريين، مركز الدراسات والأبحاث الاقتصادية والاجتماعية بالاشتراك مع المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية، القاهرة-تونس، ١٢-١٧ أبريل ١٩٧٨.

^{٥٦} - مختار (علي)، حول القومية والعروبة والنهضة، مصدر سابق ص (١٠٥).

^{٥٧} - وناس(المنصف) الدولة والمسألة الثقافية في المغرب العربي، مصدر سابق ص (١٤١).

^{٥٨} - الوكادي(جليلة) التفكير التونسي في ضوء التناقضات القائمة في الفكر العربي المعاصر حوليات الجامعة التونسية العدد (٣٩) جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية تونس ١ كلية الآداب منوبة (١٩٩٥)، ص (٤٠٩).

خاتمة

إن التّجاذبات الحاصلة تاريخيا بين دعاة القومية وأنصار القطرية في تونس لا تنفك فيما رأيناه عن الجدل القائم بين مختلف المنظرين والسياسة والمهتمين بالمباحث الحضارية. وفي التّأصل للهوية الثقافية. على أن الاستنتاجات الحاصلة من الاندراجات المذهبية والاتجاهات الإيديولوجية والأغراض السياسية... قد لا تعكس جوهر "الشخصية التونسية" بقدر ما تبرر القناعات الذاتية بعيدة في الأفهام عن مقتضيات الدقة العلمية وجهود الموضوعية..

← لذلك لا نرى لغير البحوث الميدانية الإحصائية والأساليب الكلية وغيرها بديلا عن الدراسات الانطباعية في سبر أغوار "الشخصية الفردية" واستكناه جوهر الهوية الجماعية باعتبارها أدخل في المناهج العلمية وأمضى في النهج الموضوعي وأبعد في الدقة وأقرب إلى اليقين وبخاصة إذا ما انفكت عن لعبة الاستمالات وتحررت من كل الرقابات.

على أن الحالة التونسية ما بعد ثورية والتي ظهر في أفقها فاعل سياسي جديد ومؤثر من حيث الثقل الديمغرافي الانتخابي ونقصد بهم الإسلاميين، وهم حتى وإن نأوا بأنفسهم من الخوض ظاهريا في هذه الصّراعات والاعتمالات الفكرية نظريًا في سياقات الصدام السياسي المكشوف بين قوى وجبهات اليسار واليمين والاتجاهات العروبية بتقاطعاتها، ربما لأن عامل الوقت لا يسعفهم، فإن ممارسة الصراع تحت عناوين المداولات البرلمانية والبلاتوهات التفرزية والسباقات الانتخابية، يبقى قائما بجلاء للعارفين بخصائص الحسابات القديمة الجديدة منذ الحراك الطلابي بأسوار الجامعة التونسية بين الستينات والتسعينات، انتهاء بمداولات تأسيس دستور الجمهورية الثانية للعام ٢٠١٤ وما مثلته لعبة لي الذراع بين الاتجاهات الحدائثة والإسلاميين في ما عرف بمعركة البند الأول من الدستور الذي وازنه الفصل الثاني منه فيما يعرف بمدينة الدولة على غرار ذلك فقس وقضايا مماثلة عجت بينها الأحداث والوقائع خلال الوضع الانتقالي الذي لازلنا نعيش على وقعها بلامتوقعها**^{٩٠}.

انتهى.

بيبلوغرافيا

المصادر والمراجع باللغة العربية

١. البيطار (د. نديم)، "حدود الهوية القومية : نقد عام"، دار الوحدة، بيروت (١٩٨٢).
٢. التوحيدي (أبوحيان)، الإمتاع والمؤانسة، صححه وضبطه وشرح غريبه أحمد أمين وأحمد الزين، دار مكتبة الحياة بيروت (د.ت)، ج ١.
٣. خوالدية (د. الصاوي)، شخصية التونسية: محصول الجغرافيا والتاريخ، تونس (د.ت).
٤. حسين (سمير إبراهيم)، "مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية"، ترجمة قاسم مقداد، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق (٢٠٠٢).

^{٩٠} - مثلت عملية صياغة الدستور التونسي من قبل المجلس الوطني التأسيسي المنتخب في ٢٤ أكتوبر ٢٠١١، معركة حقيقية لتمثل مشروع تونس الجديدة ما بعد ١٤ جانفي ٢٠١١، بشرت بعودة الصراع القديم الجديد بين مشروعين متضادين للإسلاميين واليساريين والحدائثيين، تجسدت رمزيته في صياغة البند الأول من ذلك الدستور والذي تمت المحافظة عليه بصيغة دستور غرة جوان ١٩٥٩، ونصه: " تونس دولة حرة مستقلة ذات سيادة الإسلام دينها والعربية لغتها والجمهورية نظامها"، والذي لم يجر الاجماع عليه إلا بعد تعليقه بشرط البند الثاني المنصص على مدينة الدولة في فصله الثاني، وكلا الفصلين لا يخضعان للتعديل.

٥. النجار (عبد المجيد)، صراع الهوية في تونس، شركة ديجيتال، تونس (د.ت).
٦. بدوي (أحمد زكي)، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، مكتبة لبنان بيروت (١٩٧٨).
٧. وطفة (علي)، المظاهر الاغترابية في الشخصية العربية، عالم الفكر، المجلد (٢٧) العدد (٢) الكويت أكتوبر/ديسمبر (١٩٩٨).
٨. سالم (نادية)، "الشخصية القومية العربية بين الدراسات الوطنية والتجريبية"، مجلة قضايا عربية، للدراسات والنشر مايو يونيو (١٩٧٨).
٩. وثائق أشغال الملتقى الأول للجامعيين التونسيين والمصريين، تونس أبريل (١٩٧٨).
١٠. مختار (د.علي)، حول القومية والعروبة والنهضة، دار علي مختار للدراسات والنشر، ط (١)، الجيزة، مصر (١٩٨٨).
١١. دافيز (هوراس)، القومية، نحو نظرية علمية معاصرة، ترجمة سمير كرم، مؤسسة الأبحاث العربية. ط (١)، بيروت لبنان، (١٩٨٠).
١٢. إبراهيم (سعد الدين) الملل والنحل والأعراق في الوطن العربي، مركز ابن خلدون للدراسات الإنمائية، القاهرة (١٩٩٣).
١٣. البوني (عفيف): وعي الهوية العربية في الفكر التونسي الحديث، منشورات العالم العربي، باريس (١٩٨١).
١٤. ابن منظور، لسان العرب، بيروت، دار صادر، المجلد (٤) ص (٥٧٤)، المجلد (٨) ص (١٨٨)، المجلد (١٢).
١٥. القيرواني (ابن أبي دينار) المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، تحقيق محمد شمام، مطبعة الدولة التونسية، ١٩٦٧.
١٦. بن القاضي (محمد الشاذلي)، الأخوة الإسلامية، المجلة الزيتونية، جويلية (١٩٣٨).
١٧. شاطر (خليفة) بروز الهوية القومية في تونس، ملتقى الذاتية العربية بين الوحدة والتنوع، الملتقى الأول للجامعيين التونسيين والمصريين، تونس أبريل (١٩٧٨).
١٨. شاطر (خليفة) حول مفهوم العصبية في تونس، كراس تونس (١٩٧٧).
١٩. البشروش (توفيق)، القومية القطرية في تونس قبيل الحماية، مجلة مركز الدراسات الاقتصادية والاجتماعية، السلسلة الاجتماعية، العدد (٤) ندوة (الذاتية العربية بين الوحدة والتنوع) تونس، ١٩٨٩.
٢٠. الوكادي (جليلة) التفكير التونسي في ضوء التناقضات القائمة في الفكر العربي المعاصر حوليات الجامعة التونسية العدد (٣٩) جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية تونس ١ كلية الآداب منوبة (١٩٩٥).
٢١. الملتقى الأول للجامعيين التونسيين المصريين، مركز الدراسات والأبحاث الاقتصادية والاجتماعية بالاشتراك مع المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية، القاهرة-تونس، ١٢-١٧ أبريل ١٩٧٨.
٢٢. إبراهيم (د.سعد الدين)، "الدولة القطرية وسيناريوهات المستقبل العربي"، مجلة الوحدة السنة الرابعة العدد (٤٨) المغرب، سبتمبر (١٩٨٨).
٢٣. وناس (د.المنصف)، "الدولة الوطنية والمسألة الثقافية في المغرب العربي"، سلسلة آفاق مغربية، سراس للنشر، تونس (١٩٩٥) ص (١٠).
٢٤. وناس (د.المنصف) الدولة والمسألة الثقافية في تونس، الكتاب الأول، دار الميثاق للطباعة والنشر والتوزيع، تونس (١٩٨٨).
٢٥. ميلاد (حنا)، "نعم أقباط لكن مصريون"، مدبولي، القاهرة (١٩٨٠).

المصادر والمراجع باللغات الأجنبية

1. Encyclopedia Universalis.vol.11 .
2. Amin,Samir, La nation arabe.Nationalisme et lutte de classes,les eduions de Minuit-Paris colin,1974.
3. Irwi,Abdallah, L'origine sociales et culturelles du nationalisme marocain (1830-1912),Paris,1977.
4. chesneaux, Jean,Le processus de formation des nations en Afrique et en Asie(Essais d'analyse marxiste).la pensée,n°119,1965.

جميع الحقوق محفوظة © 2020 الدكتور صابر فريجه، المجلة الأكاديمية للأبحاث والنشر العلمي.(CC BY NC)